اللغة والفكر وحتمية التكامل.

أ. والي مولات
جامعة: جيلالي ليابس
كلية: الآداب و العلوم الإنسانية،
قسم اللغة العربية و آدابها.

التفكير هو فعل و مضمون. فعل من حيث تولي العقل عمليات القياس والاستقراء و الملاحظة، و البرهنة وغيرها من عمليات تحقيق المعرفة عن طريق شتى الأدوار العقلية الممكنة. و هو مضمون من حيث النتاج العلمي والإبستيمولوجي المتوصل إليه والذي ترتسم ملامحه ما بين المحدود والمطلق." وهو عند بعضهم التصدي بالعقل لأي مسألة أو قضية من مسائل وقضايا الحياة، والمادة والمصير"(1) هذا التصدي لقضايا الوجود ، وظواهره لا يمكن أن يتم دون وجود دعامة فكرية وإنسانية تكون بمثابة الوعاء و الوسيط في الآن ذاته. ولعل اللغة- و نظرا لدورها الهام في الحياة الإنسانية على المستوى التواصلي، والاجتماعي، والشخصي،و الفكري، والعلمي والإبداعي-يمكن أن نعتبرها، بل من الحتمي أن تكون هي هذه الدعامة.

(فالعقل، و المعرفة و اللغة). مثلث لا قيام فيه لركن دون البقية ،و" النطق الذي هو من أهم ميزات الإنسان الجوهرية، لا يعني التصويت والإشارة بقدر ما يعني العقل والوجدان المعبر عنهما باللفظة والإشارة"(2) فاللغة إذا هي وسيلة من وسائل العيش و وجه من أوجه

الوعي البشري و غاية من غايات العقل، و أسلوب من أساليب الرقي السلوكي لدى الإنسان.

فليس من باب الصدفة على الإطلاق أن يجتمع عاملا النطق والتفكير في الإنسان وأن يقتصرا عليه وحده دون سائر المخلوقات. لولا ارتباط الأمرين معا و تداخلهما ، فاللغة تشتغل انطلاقا من معطيات فكرية مبنية على أسس وأحكام عقلية متمرسة.كما أن صواب المعنى وصحة القول، وسلامة البيان أمور لا تتم و لا تكتمل في اللغة إلا بوجود مرجعية فكرية مؤطرة لكل هذا. و ذات الشيء بالنسبة للفكر الذي لا يمكن أن يستقيم له درب دون وجود لغة تحمله بداخلها تتقاسم معه هويته ، وتمنحه هويتها. فكلاهما ملتزم بالآخر مكمل له و متداخل معه.

الضرورة المعرفية و الحضارية للغة:

إن قيام المجتمعات منوط بدور اللغة. حيث تبني اللغة الأفكار، وتبني الأفكار الثقافة، و تبني الثقافة الحضارة. فاللغة إذا هي اللبنة الأساسية في البناء الحضاري وهي بلا شك الحيز الذي يقع ما بين المنطلق المادي و المنتهى المعرفي. هذا الحيز هو ما تسبح و تطوف في فضائه كل الأفكار و المعارف والمعلومات والتعليقات التي تكون في بدايتها استفهام و نهايتها جواب. أصلها شك و إشكال و فروعها معارف ويقين." فالإرادة الإنسانية لا تقف مكتوفة الأيدي أمام الأحداث التي تجري من حولها. و منذ القديم بدأ الإنسان بإضفاء الدلالات الميثولوجية على الظواهر الطبيعية، فانبثق ميلاد الأسطورة، و بدأ الإنسان ينتقل من طور الطبيعة إلى طور الثقافة..."(3)

وفي كل مرحلة من مراحل تقصي الإنسان للحقيقة كانت اللغة حاضرة سواء بأشكالها البدائية، أو بأشكالها الحضارية المعاصرة.

فاللغة هي منطلق العقل و مؤداه، منها تنطلق أفكارنا و عن طريقها تتبلور و تتجسد، ومن خلالها تنبثق هذه الأفكار، وبواسطتها تتطور المنجزات العلمية، والفكرية، والفنية ، والبشرية. فاللغة إذا تتخلل وتشتغل في كل مراحل اشتغال العقل البشري انطلاقا من تعاقد العقل مع النية في إيجاد الأفكار وصولا إلى تجسيد هذه الأفكار وتحقيقها وانتهاء بتطويرها وتناميها. فإذا كان هناك من " سبب آخر لفهم الحقيقة إلى جانب البحث في الأسباب"(4) فهو اللغة. و لو أن أي شيء أردنا تحديده ، و رسم ملامحه النهائية تمكنا منه إلا الحقيقة فهي دائما جزء من كل لا ينتهي. تتمركز في كلامنا. و تنتشر في لغات العالم من حولنا. نحاول القبض عليها فتنقض هي على أفكارنا، تتخلل معارفنا ، وحياتنا . و تؤسس الوجود من حولنا. وتبقى اللغة وحدها القادرة على توصيفها لنا.

ولعل من الصائب اعتبار اللغة احتمالا بالغ الأهمية. فهي المنطق الذي يشتغل به العقل قبل أن يصل إلى أي منطق سواها. و اللغة البشرية في المجال التواصلي هي أبلغ من أي نوع من أنواع التواصل الأخرى. فهي أقدر من الرمز، و العلامة و الإشارة، و هي أبلغ من الصورة والرسم، و هي أشمل من كل أشكال التعبير و الإبلاغ الأخرى. وحضور اللغة في الحياة البشرية يعد بمثابة المقوم و المنظم ففي وظيفتها التواصلية قدرة عالية و أهمية بالغة في خلق حياة منظمة وفي تسهيل

سبل عيش الإنسان، و إعطاء هذه الحياة قيمة عليا و منح منجزات الإنسان وسلوكاته معنى و جوهرا.

وهي أيضا كما يراها غادامير" فوارة المعنى لا تستنفد معنى ما تقوله لأن هناك دوما إرادة في تشكيل عبارة تعبر عن واقع أو حال أو ظرف. فاللغة هي أوسع من أن تختزل إلى مجرد أنساق في التعبير، أو أبنية في الخطاب"(5) فهي خزان الفكر و الوعاء الذي يحتويه، و قبل ذلك هي واحدة من العناصر العقلية المنتجة . والتي تتبلور ضمنها و من خلالها معارف الإنسان و أفكاره ، و قناعاته. و كل هذا يؤدي بنا إلى اعتبار اللغة قيمة حضارية صارمة يحيل عجزها على غياب الآخر المرتبط بها. و يؤدي حضورها إلى وجود هذا الآخر و تناميه في حضرتها.خاصة إذا علمنا أن العقل الذي هو العماد المطلق للحضارة لا يمكنه الانبثاق لتطبيق آلياته و إرساء مبادئه دون اجتراحه للعامل اللغوي.

فعندما يشتغل العقل يقوم باستقراء الأشياء و الأحداث. معتمدا إما على الجدل، أو على استقطاب الأشياء بالحدس ، و أحيانا يقوم برصد الظواهر لاختبار الجزئيات منها و الشوامل. و هو في هذا الوضع يقوم بعملية التفكير قصد إنتاج معلومة ما، أو إثبات فكرة محددة، أو التأسيس لنظرية معينة، أوالإعلاء من شأن فرضية مرجحة كانت أم مستبعدة. فالفكر " عند البعض هو إعمال العقل في الأشياء و الأحداث للوصول إلى معرفتها"(6) والمعرفة هي ثمرة تجربة خاضها العقل، وهي نتاج تفاعل الطاقة العقلية بالإمكانيات الوجودية المحيطة بهذا العقل. ولكن "إذا كان العقل هو إحدى آلات المعرفة لا آلتها الوحيدة"(7) فأكيد بأن اللغة هي أيضا إحدى الآليات الفاعلة والمنتجة لا المعبرة و الموصلة فقط.

فالعقل البشري يستوعب، يفهم، ويدرك/ يحلل ، يفسر، ويرجح/ يلاحظ ، يتدبر ، ويقارن. يقوم بكل هذه العمليات حتى يسلم بالحقيقة

أويرفضها هذا إذا كانت الحقيقة موجودة سلفا على أرض الواقع. أما إذا كانت الحقيقة أو هذه المعرفة تقبع في اللايقين ، و لازالت أواصرها من عدم ، فالعقل البشري يسعى إلى رسم ملامحها و تبيان قيمتها، و ذلك بتحقيقها و إعطائها الحجة و البرهان على حضورها وعلى صحة وجودها. هذه الحجة و هذا البرهان لن يتما باليسر المطلوب إلا إذا توافر عنصر اللغة التي تمكن المفكر من صياغة أفكاره، و المؤلف من كتابة نصه، و المبلغ من تأدية رسالته " فالأسلوب هو الإنسان، و اللغة في الآثار و في الأبحاث الفكرية عنصر أساس لا وسيلة نتوسلها لنقل الرأي و الموقف و للدفاع عنهما"(8) بل و أكثر من ذلك، فعالية العقل لن تتأتى من دون وجود وسيط ينمي ويزكي هذا التفاعل الموجود بين البنية السامية في الإنسان(العقل) وبين باقي البنى الموزعة في عالم الموجودات. و نحن عندما نقول الوسيط نقصد به اللغة إلى حد ما، إذ لا يمكن للعقل أن يشتغل من دون لغة تعينه على محاورة ذاته، و لو على المستوى الذهني. فالعقل قبل أن ينتج المعلومة يعتمد على اللغة في بلورة وتشكيل تخومها، ذلك أن اللغة" هي نسق نحوي موجود بقوة في كل دماغ"(9) لا يمكن للعقل أن يشتغل دون امتلاكه للمعطى اللغوي، فقبل أن تخرج المعلومة من الذهن متجهة إلى العالم الخارجي، تمر بمراحل تشكل وتبلور في دماغ الإنسان تتراوح ما بين الأخذ و العطاء، و تتباين فصولها ما بين

إثبات وإنكار،فيشهد الدماغ حالة حوار و مساءلة تتم تحت حضور الغطاء اللغوي.

البعد التواصلي بين الغائية و الحتمية:

تأخذ اللغة في بدايتها وضعا انتاجيا للمعرفة قبل أن تنتقل إلى الوضع الوصفي أو الضابط. حيث يقوم العقل بإعطاء صورة واصفة، ووضع محدد ونهائي للمعلومة المتوصل إليها ثم بعد ذلك تأتي عملية التعبير عن تلك المعلومة أو الحقيقة المتوصل إليها بإخراجها و لفظها إلى العالم الخارجي والوجود كتابة أو نطقا.

فتحقق الأفكار و تطورها و ديمومتها يتم بتنقلها عبر مختلف البنيات العقلية ذات المستويات العلمية المتفاوتة و المتعددة، حيث لا يمكن للتواتر الفكري أن يحدث ما لم يكن هناك تواصل لغوي. وكلما كان التواصل فاشلا كان التواتر صادما و عقيما، و هذا ما يحيلنا بصورة مباشرة إلى حقيقة أن التواصل السليم و الكامل يعطينا تواترا فكريا وتعبيريا ناجحا." فطباع الناس متفاضلة في التصديق، فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية"(10) لذلك نقول أن اكتمال دور اللغة في تحقيق التجارب و مساءلة المعرفة قصد تبليغها يكون عن طريق سعي صوري ابستيمولوجي حفيف بإمكانيات إقناعية وإبلاغية جادة بالنسبة للفرد المتكلم.فاللغة تحمل بداخلها إرثا فكريا وإنسانيا زيادة على الإرث اللساني، وتكمن قوتها في قوة المبدأ الساعية إليه. فصحيح بأنها خاضعة

لمجموعة من قوانين و حتميات التواصل الإنساني، إلا أنها في الآن ذاته قيمة إنسانية عليا تزاوج بين المفارقة المادية و المعنوية لتجعل منها مصدر انبثاق لطاقة تعبيرية و إيحائية غير خاضعة لقيود ونواميس الوجود.

إن البعد التواصلي للغة من أهم الأبعاد التي لابد على المبلغ احترامها فهو إذ يتكلم يبلغ حقيقة معينة بعد أن اكتنه جوهرها و حقق مظهرها. وهو في وضع التبليغ ملزم باحترام التفاوت في المسافات بين الأذهان المدركة، فلا يعدمن وسيلة خطابية، و لا بادرة اقناعية، و لا ميزة جمالية. فاللغة مضمون وشكل. و جود و امتداد، منطق و ابتكار.

و بما أن الإنسان كائن اجتماعي فإن طبيعته هذه تفرض عليه تبني صيغة تواصلية مع المحيط العام الذي يشغل جزء منه. و تأتي اللغة بكل عمقها و حمولتها استجابة لاعتبارات الشراكة والتواصل القائمة بين الفرد
والجماعة،و بين الجماعة و الجماعة. فاللغة هي ما يحقق معادلة التكافؤ بين مختلف الوحدات الاجتماعية،و البنيات الفكرية.

أدوار اللغة الذهنية و المادية:

هناك لغة ذهنية يشتغل بها الإنسان و هو يحاول بلورة فكرة معينة في ذهنه قبل التعبير عنها صوتا أو كتابة، و هذه اللغة الذهنية تمثل قاعدة و منطلقا للأفكار. و هناك اللغة التي يبوح بها الإنسان عن أفكاره،و ما بين اللغة الأولى و الثانية هناك فروق بسيطة:

-افتقار اللغة الذهنية إلى الإيقاع الصوتي، كما أنها لا تحتاج إلى عامل الآداء فلا أسهل من تواصل الإنسان مع ذاته، فالشخص الذي يفكر إنما يشتغل بهذه اللغة في حدود ما يفهم، و في حدود ما له من إمكانيات.

-كما أن اللغة الذهنية هي منطلق الأفكار، فعن طريقها وبواسطتها تتم أولى خطوات التفكير. لتأتي اللغة المادية كمرحلة لاحقة لمرحلة التفكير، وهي ليست بالمرحلة الأخيرة من مراحل تبلور الفكرة أو المعلومة، ذلك أن الأفكار المعبر عنها من طرف الشخص المتكلم ستعاود الالتحام بالبنية الذهنية المفكرة ، وذلك بانتهائها مجددا إلى العقل البشري.

فالسامع أوالقارئ يشتغل بواسطة لغة داخلية أثناء تعامله مع المعلومة محاولة لفهمها واستيعابها. فالعقل البشري يستقبل نصوصا مؤسسة ثم يعيد تفكيكها و من ثمة تركيبها من جديد وفق أسس و سبل يفهمها هو. و هكذا تتم عمليتي الفهم و الإدراك، و من ثمة نخلص إلى فكرة مفادها أنه ما دامت الأفكار والمعارف و المعلومات تنطلق من الذهن لتتصل بذهن آخر، فإن هذه المعارف و المعلومات أيضا تنطلق مع اللغة الذهنية لتنتهي إليها، فهذه اللغة تشغل حيزي البداية و النهاية. في عملية الخلق الفكري و التواصل اللغوي.

-اللغة الأولى (الذهنية) هي الأسرع و الأكثر كثافة،و هي أيضا الأكثر تمازجا بالعالم الرمزي و التصويري من اللغة الثانية المنطلقة في

العالم المادي. فالإنسان عندما يفكر تتداخل في ذهنه الكلمة مع الحرف، والصورة مع الرمز، و الإشارة مع الرسم. و هذا كله يحدث في أبسط وأقل الأجزاء الزمنية، فتواصل الإنسان مع ذاته و تواصل الذهن مع جزئياته أسرع و أدق أنواع التواصل. و هو أسرع من تواصل الإنسان مع غيره." فالكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس"12 أي المعنى الأولي قبل أن يختلط بالشوائب الداعمة و الشارحة. و قبل أن يمتزج النص الأصلي و المعنى الأولي بمعاني لاحقة تأتي مكملة، و لكنها أحيانا تفهم مغالطة. فيخرج المعنى عن إطار الكلام الذي يحتويه ، وينزاح الكلام بعيدا عن حدود المعنى الذي يبغيه.

-اللغة المنطلقة إلى العالم الخارجي،أو اللغة المادية إن أمكن تسميتها خاضعة لرقابة و سلطة المرجعية الخارجية الداعمة منها والمقومة.

-أما اللغة التي تكمن في الذهن البشري فهي منفكة عن ضوابط العالم الخارجي إلى حد ما . فهي لغة حرة و متحررة لا تخضع لقيود المجتمع و لا لقوانين الآخر. و ليونتها هذه هي ما تعطي للمعاني المتولدة قوة معرفية ودقة تعبيرية، و هو الأمر الذي سيسهل مهمة القارئ لاحقا عندما يجد نفسه أمام مفاهيم رصينة" فتحديد المفاهيم الأدبية ليست مهمة سهلة، و تتراكم الصعوبة عندما يكون المفهوم ملتبسا في و لادته" 13

-وبعكس اللغة الذهنية، فإن اللغة المادية لغة مقيدة ليس بمعنى القيد السلبي حتى لا نكون مجحفين بحقها و منكرين لطاقاتها و قدراتها .

فنحن عندما نقول بأنها مقيدة فهذا يعني بأن الشخص المعبر ينصاع أثناء تعبيره عن أي موضوع لطبيعة الشخص أو الأشخاص الذين يكلمهم. فيراعي مستواهم الفكري و قدراتهم اللغوية، طبيعتهم الفكرية. كما ينصاع لطبيعة المجتمع فلا يكاد البعض يخرج عن الأطر الدينية و السياسية و الخلقية والاجتماعية.....أي أن اللغة المادية أكثر تقييدا و أقل استقلالا من اللغة الذهنية.و ربما يرجع هذا لطبيعة المادة في حد ذاتها، فللمادة نقطة بداية ونقطة انتهاء، للمادة طبيعة وأصل مهما بدت للبعض بأنها متغيرة و المادة أيضا خاضعة لما يحيط بها.

-تتميز اللغة المادية عن اللغة الأولى بأنها لغة مؤسسة على الصوت،الإشارة،الإيحاء،التمثيل و الآداء بالإضافة إلى العامل الزمني المطلوب لإنجاح عملية التبليغ و التعبير و تحقيق التواصل.

-اللغة المادية بقدر ما هي خاضعة لضوابط المادية،و قوانين العالم الخارجي فهي في نفس الوقت مستفيدة و متشبعة بثقافة و إيديولوجيات العالم المرجعي فهي ذات موسوعة أكثر اطلاعا و شساعة.

مكتبة البحث:

1-إفرام بعلبكي مدخل إلى تاريخ الفكر العربي-منهجية في النقد- دار الحداثة، ط1 1984،بيروت لبنان، ص30

2-نفس المرجع ؛55/ 56

3-هانز جورج غادامير، بداية الفلسفة، تر: علي حاكم صالح حسن ناظم ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1 2002،ص 26

4-أحمد يوسف، سيميائية التواصل و فعالية الحوار، المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطاب، جامعة وهران ط1 2004. ص 255

5-نفس المرجع السابق ،ص 173

6-إفرام بعلبكي ص 30.

7-نفس المرجع ص31.

8-نفس المرجع ص 55.

9-مارسيلود أسكال، الإتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد لحمداني و آخرون، دار إفريقيا للشرق، المغرب 1989 ص 21.

10-ابن رشد، فصل المقال، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1982 ، ص 34.

11-إفرام بعلبكي، ص 55.

12-شكري محمد عياد، بين الفلسفة و النقد، منشورات أصدقاء الكتاب مطابع سجل العرب، سنة 1990 ، دمشق، ص26.

13-فيصل دراج، الواقع و المثال، سلسلة كتب في مختلف أنواع المعرفة و الإبداع، دار الفكر الجديد، ط1 1989 بيروت لبنان، ص 19.